من وثائق المنظمة الماركسية – اللينينية المغربية
"إلى الأمام" حول قضية الصحراء

– وثائق تاريخية و استراتيجية –

"الأسس التاريخية لكفاح التحرر الوطني للشعب الصحراوي
و تبلوره فيما بين 1955 و 1976"

تمة حدثان هامان ، شهدهما شهر يناير 1989 ، كشفا بمزيد من الوضوح فعل المغامرة الاستعمارية التي أقدم عليها النظام الملكي والبورجوازية المغربية بالصحراء الغربية:

* الحدث الأول البارز ، لكونه يشكل منعطفا حاسما ، يتمثل في اضطرار الحسن الثاني إلى تخصيص استقبال رسمي في قصره في مراكش لوفد يتكون من ثلاث قادة كبار في جبهة البوليزاريو- وليس باعتبارهم "رعايا جلالته" كما صرح بذلك الغبي الشاذلي القليبي !- ورغم محاولة إعطاء هذا اللقاء صبغة محادثات ، فإنه اكتسى في الواقع مفاوضات مباشرة بين النظام المغربي وجبهة البوليزاريو ، بهدف وضع الترتيبات اللازمة لضمان إجراء استفتاء تقرير مصير الشعب الصحراوي نزيه ، تحت إشراف الأمم المتحدة ، ولتنظيم عملية وقف إطلاق النار التي تمهد لذلك.

وبذلك تتبخر 15 عاما من الكذب وبث الحقد الشوفيني ضد جبهة البوليزاريو.

* الحدث الثاني ، وفي تعليق له حول لقاء مراكش ، أقر الحسن في استجواب أجرته معه مجلة "لونوفيل أبسرفاتور" ، في عددها الصادر بتاريخ 12 يناير 1989 ، بأنه قد فقد فعلا السيادة القانونية التي أصبحت من مهمة منظمة الأمم المتحدة ، وبذلك تتلاشى خرافة "الصحراء المغربية" ، بل أكثر من ذلك ، بدأ الحسن منذ الآن يبحث عن مخرج لهذا المأزق لعله يفلت من حكم التاريخ ، إذ نجده يصرح: "ابتداءا من اللحظة التي يتم فيها وقف إطلاق النار لن يبقى هناك مجال لإنقاذ

هذا الهامش من وضع موقع "30 غشت":

كتبت الوثيقة على الأرجح في بداية 1989 ، وقد نشرت بالخارج من طرف مناضلين من المنظمة ، و ليس هنا الأهم تاريخ صدورها بقدر ما تكمن أهميتها في كونها استعادت مجموعة من المواقف و الأسس و التصورات لمنظمة "إلى الأمام" حول سيرورتي تبلور الشعب المغربي و الشعب الصحراوي ، كانت قد تبلورت داخل سجون النظام الكمبرادوري خاصة بالسجن المدني "غبيلة" بالدار البيضاء و السجن المركزي بالقنيطرة في الحقبة الممتدة من 1976 إلى بداية الثمانينات.

وننشر الوثيقة لكونها استعادت تلك الأفكار ، وإن كان ذلك في فترة متأخرة. وأضفناها للوثائق الثلاثة السابقة ليستطيع المناضلون والقراء تكوين فكرة عن المنظور التاريخي و الاستراتيجي لمنظمة "إلى الأمام" حول قضية الصحراء.

ماء الوجه".

كل هذا لا يمنع الحسن من الاستمرار في المناورة للحد من الهزيمة ، وخصوصا من أجل إخفاء الحقيقة عن الرأي العام المغربي ، الذي لن يتساهل في محاسبة النظام الملكي المسؤول عن 13 عاما من الحرب الاستعمارية ، وعما ترتب عنها من تضحيات جسيمة أدى ثمنها غاليا الشعب المغربي ،من دم أبنائه وقوته اليومي. أما الأحزاب الإصلاحية التي لطالما راهنت على بث الشوفينية منذ أزيد من 15 عاما ، فإنها لا تدري بعد ما هي الأكاذيب والخدع التي ستمكنها من إخفاء الحقيقة عن الجماهير و عن نفسها أيضا.

في الوقت الذي تقترب فيه ساعة الحقيقة إذن ، نرى من المفيد الرجوع قليلا إلى الوراء ، لتوضيح الأسس التاريخية التي قام عليها نضال الشعب الصحراوي من أجل التحرر الوطني ، و الشروط التي أدت إلى تبلور هذا النضال في إطار جبهة البوليزاريو.

وبموازاة ذلك ، سنحاول أيضا تحديد الجذور التاريخية والطبقية للشوفينية المغربية ، و المسؤولية التي يتحملها النظام الملكي و البورجوازية المغربية ، منذ 1956 إلى حدود شن الحرب الاستعمارية على الشعب الصحراوي في يناير 1976.

وفي مقال لاحق سنعمل على تحديد مدى التأثير الذي مارسته مسالة الصحراء الغربية في تشكل الإيديولوجية الثورية المغربية.

1) حول الأسس التاريخية لتشكل كل من الشعبين المغربي و الصحراوي:

"لن أطلق سراح الذين يضعون موضع شك أربعة قرنا من التاريخ المغربي" هذا ما صرح به الحسن في حديثه عن المناضلين الماركسيين اللينينيين المعتقلين ، الذين ينازعون في مغربية الصحراء ، وهو محق (فيما يتعلق بهذا التشكيك طبعا) لأن موضوع النزاع هنا هو التصور البورجوازي بأكمله لتاريخ المغرب ، والذي تقوم عليه شرعية الملكية العلوية.

في صيف 1970 ، أبان التصور الوطني للبورجوازية المغربية ، والذي ساد على الساحة السياسية المغربية منذ أربعين سنة ، عن إفلاسها ، و ذلك بتزكيتها لمخطط روجز الامبريالي الهادف إلى عزل المقاومة الفلسطينية وتمهيد الطريق لمجازر أيلول الأسود التي قام بها الملك حسين في نفس السنة.

من المعلوم أن منظمتنا الماركسية اللينينية "إلى الأمام" ، التي تأسست نتيجة القطيعة مع حزب التحرر والاشتراكية لعلي يعتة ، لرفضها لهذه السياسة ولإصلاحية هذا الحزب ومجموع الأحزاب السياسية البورجوازية الصغيرة ، ولم يكن غريبا إذن ، أن تناهض منظمتنا التصور الوطني للبورجوازية المغربية لمسألة الصحراء الغربية ، ولتضع — آنذاك - مسألة تحرير الصحراء الغربية في إطار الثورة العربية ، وفي نفس الوقت في إطار النضال المشترك المناهض للامبريالية في

المنطقة.

هذا بالإضافة إلى أن الأحزاب الإصلاحية التي تتبنى هذا التصور ، أظهرت دون استثناء ،عجزها التام عن تاطير أية حركة جماهيرية في مواجهة الاستعمار الإسباني ، وعجزها عن فضح تآمر النظام الملكي مع نظام فرانكو.

وفي المقابل ، منذ 4 ماي 1970 ، لعبت نواة المناضلين الثوريين الذين سيؤسسون منظمتنا "إلى الأمام" – الذين افلتوا من مراقبة قيادة حزب التحرر والاشتراكية –الدور المحرك في تنظيم الإضراب العام الذي شنه طلبة جامعة الرباط احتجاجا على زيارة الوزير الإسباني الفرنكاوي لوبيز برافو للمغرب ، ذلك الإضراب الذي أوقف مشروع اتفاق بين الحسن وفرانكو ، يهدف إلى الاستغلال المشترك لفوسفاط بوكراع ، في ظل سيادة الاستعمار الاسباني.

لكن هذه القطيعة مع التصور الوطني للبورجوازية المغربية ، كانت تفتقر وقتها إلى تحليل علمي لمفهوم الوطن المغربي نفسه ، لجذوره التاريخية ، لمحتواه الاجتماعي ، لموقعه بالمقارنة مع تشكل المجموعات الوطنية الأخرى "المغرب الكبير" لمسألة هوية هذا الوطن نفسها (عربي أم عربي – أمازيغي ؟) ولموقعه أخيرا داخل الدينامية "القومية" العربية.

ليس المجال هنا للقيام بتحليل من هذا النوع ، سنكتفي فقط برصد سريع للمسارات التاريخية الخاصة ، التي تشكل ضمنها الشعبان المغربي والصحراوي كل على حدة.

1) حول التشكل التاريخي للشعب المغربي:

بخلاف السيرورة التاريخية الممتدة لآلاف السنين ، التي انطلقت بشمال البحرالأبيض المتوسط مع قيام الدولة الإغريقية القديمة التي انبثق عنها تشكل تدريجي للأوطان (أو القوميات) الموازي لتفكك البنيات القبلية وانتهاء خضوع القن لسيده الإقطاعي ، ثم بروز الرأسمالية ، فإن التشكل التاريخي لأوطان وشعوب جنوب البحر المتوسط ، تم تدريجيا كذلك بتجاوز- وفي نفس الوقت بالحفاظ على- البنيات القبلية داخل مجموعات أكثر اتساعا.

إذا كان الإسلام قد لعب دورا إيديولوجيا هاما في سيرورة التجاوز هاته ، تجدر الإشارة إلى أن هاته السيرورة كانت قد انطلقت قبل مجيء الإسلام في منطقتنا – أي البلدان الثلاثة التي تشكل إفريقيا الشمالية ، بالمعنى الضيق للكلمة ، والموجودة شمال الصحراء ، وهي المغرب والجزائر وتونس- ، إذ أن الحضارة الأمازيغية التي تطورت بهذه المنطقة منذأربعة آلاف سنة ، تمكنت في ذلك التاريخ من أن تحتوي على عناصر تمفصل أولي ، مدينة ، بادية ، والتي تشكل في عهد القرطاجيين وامتداداته ، كما يسميها المؤرخون ، خطوة أولى ذات دلالة. أما النشاط الاقتصادي بهذه المنطقة ، فكان يعتمد أساسا على الزراعة وتربية الماشية ، بشكل تكاملي في ظل نمط عيش ، إن لم يكن يتميزدائما بالاستقرار فإنه كان على الأقل يعتمد على تنقلات فصلية ولمسافات محدودة.

ولابد بهذا الصدد ، من الإشارة إلى دراسة حديثة وهامة في موضوع "العالم القروي المغربي" حيث يشير مؤلفها "... إن نظام الاستثمار السائد ... كان قائما على تركيب بين الزراعة وتربية الماشية على شكل نظام مختلط زراعي – رعوي

يناسب الشروط البيئية المحيطة..." وتضيف هذه الدراسة: "... إن هذا التركيب تم تعزيزه مع قدوم القبائل العربية ، وخصوصا تلك التي وصلت فيما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر ميلادي ، وهنا أيضا بعيدا عن كل حتمية إثنية ، فقد ساد النظام المختلط ،الزراعي – الرعوي داخل هذه المجموعات كذلك..." .

إلا أن هذه المجموعات البشرية والزراعية – الرعوية "المتكيفة مع شروط البيئة"لم تكن تشكل مجموعات مغلقة قادرة على تحقيق اكتفائها الذاتي.

وعلى العكس ، فإن التكامل التجاري ، بين الزراعة والرعي ، كان بالكثافة التي سمحت ، بتكوين شبكات المدن – البوادي التي تمثل الأساس الموضوعي لتكتل هؤلاء السكان في شعوب وأوطان.

لكن هذا التشكل ، في إدماجه للكيانات القبلية ، حافظ على الخصوصيات الجهوية. إن هذه الدينامية التاريخية ، قد تسارعت مع قدوم الإسلام ، ومع الانفتاح على العالم العربي ، وهو في أوج حضارته ، لكن في نفس الوقت ، ستعرف هذه الدينامية أشكالا خاصة للصراع الطبقي بين الأوليغارشيات القبلية التي تحالفت مع البورجوازيات الميركنتيلية الجديدة – التي تكونت بارتباط مع هذا الانفتاح – لكي تشكل دولة امبراطورية مركزية مسيطرة من جهة ، وجماهير فلاحي القبائل التي كانت تناضل ضد هذه السيطرة ، للحفاظ على استقلاليتها .

في خضم هذا الصراع ، الذي هو في نفس الوقت صراع طبقي ، وصراع من أجل الحفاظ على الاستقلالية والخصوصية الجهوية ، التي وصلت احيانا حد تشكيل دول قائمة بذاتها ، كما هو الشأن بالنسبة لدولتي بورغواطة ونكور ، التي عاشت لفترات طويلة جدا ، كانت جماهير فلاحي القبائل تضع في مقابل التصور الرسمي للإسلام الذي تدعو إليه الدولة الامبراطورية المركزية المنقول عن الإديولوجيات الامبراطورية للشرق ، تصورا شعبيا للإسلام أكثر اقترابا من الدعوات الأولى للرسول وللإسلام الخوارجي ، وهو التصور الذي نجده عند أكثر من تيار صوفي بالمغرب.

إن إحدى الدوافع الجوهرية ، كذلك ، في تشكل مثل هذه الدول الامبراطورية المركزية ، كان يتمثل في السيطرة على منافذ تجارة القوافل بشمال الصحراء ، هذه القوافل التي كانت تنقل اساسا الذهب من غانا القديمة إلى الأسواق عبر منطقة البحرالأبيض المتوسط ، وعندما أصبح هذا الطريق متجاوزا بسبب التطور الذي عرفته الملاحة الأوربية ، فيما يتعلق بالمسافات الطويلة ، فإن هذه الدولة الامبراطورية المركزية – والتي ستتحول إلى البنية الطفيلية التي تكون المخزن – قد ظلت قائمة بفضل نهبها للإنتاج الزراعي (الحبوب) للقبائل الخاضعة من أجل تصديره إلى الأسواق الرأسمالية الأوربية الصاعدة ، مقابل الحصول على الأسلحة والمال الضروريين للحفاظ على سيطرتها على هذه القبائل ، والمحافظة على بنيتها الطفيلية ، وهذا ما يمثل في الجوهر ، الدور والأساس الذي قامت عليه الدولة العلوية. لكننا يجب أن نفهم كذلك بأن البورجوازية الميركنتيلية الكبيرة في المدن الرئيسية ، ستصبح منذ ذلك الوقت جزءا مكونا للطبقات السائدة في هذه الدول الامبراطورية. وبالمقابل ، وفي مواجهة هذا النهب وطفيلية المخزن ، فإن جماهير فلاحي القبائل ، قد عززت تلاحمها في كيانات جهوية حقيقية ، كما هو الحال بالنسبة لكونفدرالية آيت أوملو في الأطلس

المتوسط ، والجمهورية الريفية ، في بداية القرن الحالي ، والمعاهدة المشتركة لقبائل سوس والأطلس الكبير بمراكش لمواجهة تصاعد الفيوداليين الكبار المدعمين من طرف المخزن والامبريالية.

هذا هو ما يشكل إذن الأساس التاريخي للتصور البورجوازي المغربي للوطن وللنظرة المخزنية لتاريخ المغرب. لكن نتصور بالمقابل أنه كان على الحركة الثورية المغربية أن تبلور من جهتها تصورا مغايرا ، يكشف الحقيقة عن نضالات جماهير الفلاحين خلال قرون عديدة في مواجهة الأنظمة المركزية المضطهدة لها ، مبلورة في مشروعها الثوري نفسه الجواب الفعلي المعبر عن مطامحها القديمة. وهذا ما يتجسد تحديدا في مشروع جمهورية المجالس الشعبية ، على أنه يجب تدقيق مضمونه أكثر ، إذ أنه إذا كانت الأطروحات التأسيسية لمنظمتنا "إلى الأمام" قد أعطت حيزا هاما لهذه النضالات ، ووضعت تصورا مغايرا تماما للسلطة الثورية ، الذي سيتجسم في مفهوم جمهورية المجالس الشعبية ، إلا أنها لم تستطع وقتها – في سنوات السبعينات – من أن تتجاوز بما فيه الكفاية تصور البورجوازية المغربية السائد للتاريخ ، ذلك أننا لم تكن لنا الجرأة الكافية لمعالجة المسألة الأمازيغية ، التي بدونها لا يمكن دراسة التاريخ المغربي دراسة صحيحة ، بالرغم من أنه كان لنا شرف التموقف والتضامن دون تنازل مع نضال التحرر الوطني للشعب الصحراوي ، ومع حقه في تقرير مصيره ، وهذا ما يسجله التاريخ ، وسيظل مفخرة لمنظمتنا.

إن مواقفنا بشأن مسألة الصحراء الغربية قد تضمنت أحيانا – نظرا لقصور نظرتنا لتاريخ المغرب ، كما أوضحنا أعلاه – بعض الغموضات فيما يتعلق بالأسس التاريخية لتشكل الشعب الصحراوي ، وظلت بعض العراقيل تحول دون معالجة هذه المسألة جماهيريا ، وبالموضوعية اللازمة.

وفي إطار تجاوز ضيق نظرتنا تلك ، للقضاء على الغموضات والعراقيل التي ترتبت عنها ، وكذلك في إطار عمل أكثر تصميما وتماسكا تجاه المناطق ذات الطابع القروي الغالب ، يتحتم علينا تعميق وتدقيق مفهوم جمهورية المجالس الشعبية ، بالاعتماد على استيعاب تاريخنا وواقع البادية المغربية ، وذلك من أجل تمكين الجماهير الكادحة في كل البلاد ، وعلى وجه الخصوص الفلاحين ، من أن يصبحوا أسيادا على أراضيهم وفضائهم على المستوى الوطني ، كما على المستوى الجهوي.

2) **حول التشكل التاريخي للشعب الصحراوي:**

إن الشعب الصحراوي قد تشكل أصلا من نفس السكان البربر – الليبيين الذين حلوا قبل 4 آلاف سنة تقريبا ، بما يسمى الآن بمنطقة "المغرب الكبير" ، ليملؤوا الفراغ الذي نتج عن رحيل السكان المزارعين الأفارقة – السود ، الذين تراجعوا إلى ما وراء جنوب الصحراء ، نتيجة التغيرات المناخية التي أدت بالأساس إلى جفاف الصحراء واتساع المنطقة شبه الجافة بإفريقيا الشمالية. إلا أن الشروط المختلفة جذريا في كل من إفريقيا الشمالية (بالمعنى الضيق للكلمة) من جهة ، والصحراء من جهة ثانية ستؤدي إلى أن يسلك الشعب الصحراوي في تشكله مسارا غير الذي أخذه تشكل الشعب المغربي.

لقد نظم السكان البربر- الليبيين ، الذين أقاموا بالصحراء حياتهم ، بالاعتماد أساسا على إدخال الجمال المستوردة من الشرق ، وذلك لغرضين متكاملين: التربية من جهة ، والتنقل وحمل البضائع في تجارة القوافل الصحراوية من جهة ثانية ، وذلك على امتداد كل المنطقة التي ستسمى فيما بعد ببلاد المور التي تغطي حوالي ثلثي شمال موريطانيا الحديثة ، بالإضافة إلى الصحراء الغربية الحالية. ورغم ارتباط الاستعماليين ، فإن تربية الجمال قد اكتست أهمية أكبر بالمقارنة مع استخدامها في التنقل وحمل البضائع – وخصوصا في الساقية الحمراء – نتيجة الأحوال المناخية المناسبة ، والتي وإن كانت قاسية نسبيا فإنها تبقى رغم ذلك ، أقل جفافا وحدة مما عليه مناخ الصحراء ، القارية ، هذا ، بالإضافة إلى وجود حواجز طبيعية التي هي عبارة عن مناطق صحراوية خالية – كتيريس الغربية – هو ما يفسر أنه بالرغم من أن الصحراويين – أهل الساحل كما يسمون ، هم أنفسهم قبائلهم من الرقيبات إلى أولاد دليم ، - تميزوا دائما بالعديد من الخصائص المشتركة – ثقافيا وتاريخيا – مع المور سكان "طراح البيضان" (وهم عرب - أمازيغيون الذين يقطنون موريطانيا الحديثة) ، فإن هذا لا ينفي في شيء من كونهم – أي الصحراويين – يشكلون كيانا مستقلا.

أما من جهة أخرى ، فإن ما تطرقنا إليه أعلاه ، يبين أيضا ، وبالملموس الاختلاف الموضوعي – تاريخيا – في تشكل كل من الشعبين المغربي والصحراوي ، برغم من انحدارهما من أصل مشترك.

وهنا أيضا ، سيؤدي عاملا الإسلام واللغة العربية - التي أدخلتها قبائل بني حسان ، والتي ستزيح تدريجيا اللغة الأمازيغية لتقضي عليها نهائيا فيما بعد – إلى انطلاق سيرورة تجاوز الهياكل القبلية الجامدة (أو المتحجرة) ، لكن ، وبما أن هذه السيرورة – بعكس ما حدث في المغرب كما رأينا سابقا – لم ترتكز على أساس شبكة مدن /بوادي ، وذلك لأسباب بديهية ، فإن "العصبية"القبلية داخل مختلف الكونفدراليات القبائلية ، ستظل هي الطابع المهيمن في الصحراء الغربية إلى حدود سن 1956.

هذا ما يفسر أن المحاولة الرئيسية لتجاوز إطار الكونفدراليات ، والرقي بها إلى مستوى الدولة – وهي دولة المرابطين – لم تستطع تخطي الطابع الامبراطوري ، والتي كانت بالنسبة للصحراء الغربية ، فوق ذلك عابرة. (فإذا كان يوسف بن تاشفين هو مؤسس دولة المرابطين المغربية ،فإن قطيعته مع أبي بكر(اللمتوني) ، تبين بوضوح انفصال هذه الدولة عن أصلها ، واستمرت بذلك القبائل الصحراوية ، وبمعزل عن هذه الامبراطورية ، على نمطها القديم (التقليدي).

إن المحاولة الثانية ، من أجل تجاوز الهياكل القبلية التقليدية ، ستأخذ طابعا مغايرا ، كما أنها ستترك آثارا وانعكاسات ذات أهمية ، بالمقارنة مع سابقتها ، ويتعلق الأمر بمحاولة الشيخ ماء العينين في نهاية القرن 19 وبداية القرن الحالي.

فبتعبئته للقبائل الصحراويةعلى قاعدة النضال المشترك ضد التدخل الامبريالي – كما هو الشأن بالنسبة لعبد الكريم الخطابي مع قبائل الريف فيما بعد – وباعتماده على الإسلام من أجل تعزيز وحدة هذه القبائل أكثر ، يعتبر الشيخ ماء العينين بحق ، رائد حرب التحرير الشعبية بالصحراء الغربية.

ويجدر بنا الوقوف هنا قليلا عند بعض الحقائق: فلقد كان سلطان المغرب يحكم الدولة الإسلامية الوحيدة القائمة

ككيان بالمنطقة ، وهو فوق ذلك كان له لقب "أمير المؤمنين" ، لذلك كان طبيعيا أن يلجأ ماء العينين إلى التحالف معه ضد الغزاة الامبرياليين. لكن السلطان العلوي عبد الحفيظ سيخون هذا التحالف في 1910 ،إذ سيوقف بإيعاز من الامبريالية – جميع الإمدادات من الأسلحة التي كانت ترسل إلى ماء العينين ، مما دفع هذا الأخير إلى الاعتماد على القوى الشعبية ، حيث نجح في ضم القبائل السوسية ، إلى النضال المشترك مع القبائل الصحراوية ضد الاستعمار.

نعلم كذلك ، أن الهيبة ابن ماء العينين ، سيواصل ويقود النضال ، في مواجهة تخاذل وخيانة عبد الحفيظ ، هذا النضال الذي سيتطور فيما بعد ليصبح ثورة حقيقية مناهضة للامبريالية وللإقطاع في نفس الوقت.

وهكذا ، فإذا كانت هناك روابط قوية بين الشعب الصحراوي والشعب المغربي ، وهي قائمة فعلا ، فهي قبل كل شيء روابط صهرها النضال المشترك ضد الامبريالية من أجل تحرير كامل بلدان المغرب الكبير ، هذا النضال المشترك الذي سيتعمق أكثر في سنوات 1955 – 1959.

أما فيما يخص مسألة "البيعة" لسلطان المغرب ، والتي نجدها – من فترة لأخرى – في تاريخ القبائل الصحراوية ، فلم تكن أبدا أكثر من تأكيد للرابط الديني المشترك وهو الإسلام ، الذي كان يتجسد في شخص "أمير المؤمنين" الوحيد الذي يحمل هذا اللقب الديني بالمنطقة ، كما أوضحنا أعلاه ، وليس لهذه "البيعة" أي مغزى سياسي فبالأحرى وطني ، إلا في حدود ما كان يجمع مصر محمد علي بالخليفة العثماني في إسطنبول. وهذا ما يؤكده أيضا حكم محكمة لاهاي الصادر في أكتوبر 1975 ، خلافا لافتراءات الحسن بهذا الشأن.

II تشكل حركة التحرر الوطني للشعب الصحراوي ما بين 1956 و 1976 أمام الخيانات المخزنية:

1) خيانة 1958، أول تشتيت للشعب الصحراوي:

إن تلاحم جيش التحرير المغربي والجزائري في جنوب المغرب وفي المناطق الصحراوية المحيطة ، ابتداءا من النصف الثاني من سنة 1956 ، في معركة واحدة ضد الاستعمار ، سيزرع الأمل في نفوس شعوب المنطقة.

ففي الوقت الذي دخلت البورجوازية المغربية بإيكس ليبان في استراتيجية الاستعمار الجديد (أو النيوكولونيالية) كان جيش التحرير في جنوب المغرب ، يدعو إلى الاستمرار في النضال إلى أن يتم تحرير المغرب العربي بأكمله ، وهي المعركة التي سيخوضها جيش التحرير من 1956 إلى 1958 بدعم من سكان سوس والصحراء الغربية ، هؤلاء الأخيرين ظلوا ولمدة نصف قرن من المعارك يتصدون للاستعمار الإسباني ، الذي لم يستطع أبدا خلال كل هذه المدة التوغل داخل الأراضي الصحراوية واحتلالها بصفة دائمة ، كما وفروا لجيش التحريرفي الجنوب قاعدة استراتيجية بالغة الأهمة.

وسيظهر جيش التحرير بالملموس مدى القوة السياسية والعسكرية التي يتوفر عليها ، وذلك بتنظيمه وقيادته ودعمه لانتفاضة قبائل آيت باعمران ضد احتلال الاستعمار الإسباني لمنطقة إفني في نونبر 1957 ، وهي الانتفاضة التي ستنجح في تحرير هذه المنطقة بصفة شبه تامة ، بل وكانت على وشك طرد الجيش الإسباني كليا من المنطقة المذكورة ، لولا

انصياع جيش التحرير لأوامر محمد الخامس ، ذلك أن العرش العلوي والبورجوازية المغربية الكبيرة كانا عازمين على تأمين استمرارية المصالح الامبريالية بالمنطقة في إطار التعامل النيوكولونيالي مع الامبريالية الفرنسية ، الذي تم تأسيسه في نونبر 1956 من خلال معاهدة **لاسيل سان كلود**.

بل وقبل ذلك ، خلال صيف 1956 ، قام الحسن ولي العهد آنذاك ، ورئيس أركان القوات المسلحة الملكية ، بفتح الطريق أمام الجيش الفرنسي ، انطلاقا من أكادير ، ليتمكن من تموين قواته الموجودة بمنطقة تندوف ، وبعد معركة إيفني- كما رأينا أعلاه – قررت الامبريالية أن تضع حدا نهائيا لجيش التحرير بالجنوب ، وسحق الشعب الصحراوي في الوقت ذاته ، ذنبه في ذلك أنه ظل صامدا لا يلين أمام المحاولات العديدة والمتكررة للاحتلال الاستعماري. ولهذا الغرض ، تم تنظيم ما يسمى بعملية "**إيكوفيون**" والتي تم التهيئ لها بصفة مشتركة من طرف الجيشين الفرنسي والإسباني ، وبدعم – في الشمال – من القوات المسلحة الملكية المغربية ، والتي كانت مهمتها سد الطريق من جهة الشمال ، وإتمام طوق الحصار المضروب على جيش التحرير جنوبا من طرف الجيش الفرنسي القادم من موريطانيا ، وغربا على طول شواطئ الصحراء الغربية من طرف الجيش الإسباني. وقامت على إثر ذلك ، الجيوش الاستعمارية بقواتها البرية والبحرية مجتمعة ببث الرعب والإرهاب في كل أنحاء البلاد لمدة شهرين ، من فبراير إلى مارس 1958 ، وعملت على تفتيت وسحق الأنوية المسلحة لجيش التحرير ، وعلى طرد جزء هام من الشعب الصحراوي خارج أرض اجداده.

إن ما قامت به جيوش الاستعمار الإسباني والفرنسي تجاه الشعب الصحراوي في 1958 ، يذكرنا بما قام به نظيرهما الاحتلال الصهيوني تجاه الشعب الفلسطيني عشر سنوات من قبل(أي في عام 1948).

لكن من رحم هذا الجزء المشرد من الشعب الصحراوي ، خمسة عشرة سنة بعد ذلك ، وسط مخيمات بالمنفى ، وبدعم من قدماء المقاومين الصحراويين ، سيولد جيل جديد من المناضلين ، الذين سيؤسسون فيما بعد جبهة البوليزاريو (الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب) ، وسيخوضون الكفاح المسلح من أجل التحرر الوطني ، والتي ستتمكن من ان تلف حولها مجموع الشعب الصحراوي ، سواء في المنفى او داخل الصحراء الغربية المحتلة.

2) تبلور إرادة التحرر الوطني لدى الشعب الصحراوي بقيادة جبهة البوليزاريو:

إن تشتيت الشعب الصحراوي في 1958 ، كان بمثابة نكبة له ، تشبه تلك التي أصابت الشعب الفلسطيني في 1948 ، ولكنها كمثيلتها هاته ، حملت في نفس الوقت البذور الأولى لبروز الشعب الصحراوي: كشعب ذي كيان خاص ، واع بذاته ، ومنظم بشكل مستقل.

على المستوى البنيوي ، فإن تشتيت 1958 ، إضافة إلى ما عرفته الصحراء الغربية من تحولات ، نتيجة عوامل التفكيك التي سببها التدخل الاستعماري الإسباني ، سيؤدي إلى زعزعة الهياكل القبلية التقليدية ، حيث لم يبق هناك أي خيار امام الجماهير الصحراوية ، إن هي أرادت الحفاظ على هويتها ، سوى تحقيق الاندماج السياسي والثقافي بالارتكاز على انحدارها من اصل مشترك كشعب صحراوي.

إلا ان هذا الاندماج نفسه جاء نتيجة مخاض عسير وموجع ، وإن كان يرجع بالدرجة الأولى إلى عوامل داخلية ، فإنه يجد مبرره كذلك – في تلك الفترة 1956/1973 والتي ستعرف ميلاد جبهة البوليزاريو – في كونه يأتي ضمن سيرورة الثورة العربية المتصاعدة في تلك الفترة.

إن أولى المحاولات تتمثل في قيام "حركة تحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب"التي أسسها سيدي ابراهيم بصيري في نهاية الستينات. لقد قضى هذا الأخير فترة هامة في حياته بالمغرب الذي التحق به وهو لا يزال شابا ، في إطار عملية اخلاء مئات الأطفال الصحراويين ، التي نظمها المقاتلون الصحراويون سنة 1957 ، وحصل على شهادة البكالوريا بمدينة الدار البيضاء ، وأنهى دراساته العليا بالقاهرة ودمشق ، ثم عاد إلى المغرب سنة 1966- ، حيث أسس الجريدة الصحراوية ذات التوجه الراديكالي "الشهاب". لكن ، وكما حدث مع الطلبة الصحراويين الذين سيؤسسون جبهة البوليزاريو فيما بعد ، فإن النظام الملكي ، وكذلك الأحزاب البورجوازية والبورجوازية الصغيرة المغربية ، لم تكن لتشجع هذه المبادرة ، مما دفع ببصيري للعودة إلى الصحراء الغربية في نهاية عام 1967.

في نهاية الستينات ، وبفعل التدخل الاستعماري ، الذي أدى إلى تفكيك الهياكل القبلية الصحراوية ، عرف السكان الصحراويون ، الذين لم يبعدوا عن أراضيهم ، نوعا من التمدن وحركة تعمير متمركزة بالأساس في الداخلة والسمارة والعيون ، هاتين المدينتين الأخيرتين ستعرفان تشكيل "حركة التحرير" المنظمة بشكل سري ، والتي وضعت كأهداف مزدوجة لها ، تحقيق الاستقلال الوطني والقضاء على البنيات القبلية.

وفي 17 يونيو 1970 ، ستندلع أول مظاهرة جماهيرية بمدينة العيون تنظمها "حركة التحرير" ، وهي المظاهرة التي تم قمعها بوحشية رهيبة سقط خلالها العديد من الشهداء ، واعتقل المئات من المناضلين الذين تم نفيهم إلى المغرب وموريطانيا ، كما تم على إثرها ، اختطاف محمد بصيري ليختفي بعدها إلى الأبد.

إلا أن مشعل مواصلة النضال من أجل الاستقلال الوطني ، سيضطلع به الطلبة الصحراويون ، الذين سيؤسسون ثلاث سنوات بعد ذلك ، جبهة البوليزاريو.

من بين آلاف الأطفال ، أبناء عائلات اللاجئين الصحراويين الذين اضطروا إلى الرحيل إلى المغرب في 1958 والذين استطاعوا الالتحاق بالمدارس المغربية ، تمكن بضع عشرات منهم ، من الوصول إلى مرحلة التعليم العالي ، والتحقوا بجامعة الرباط ، التي كانت تعرف بدورها نشاطا سياسيا وإديولوجيا هاما الذي - إلى جانب الحركة الماركسية – اللينينية المغربية الناشئة آنذاك – لعب فيه الدور الأول ، تاثير الثورة الفلسطينية ، ونهوض الحركات التحررية المسلحة في العالم ، بما فيها إفريقيا (ونحيل القارئ بهذا الصدد على العدد 19 من مجلة "أنفاس" الصادر بتاريخ يناير 1971 والمخصص لحركات التحرر الإفريقية ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر).

في ظل هذا الواقع ، سيعمل الطلبة الصحراويون ، الحاملون لهموم ومعاناة شعبهم ، الذي عانى كثيرا من التشتت في 1958 ، حيث عايشوا كل أحداثه منذ صغرهم ، إلى مذبحة العيون في يونيو 1970 ،على تنظيم أنفسهم بهدف تحرير

وطنهم. ولم يعد يخفى على أحد الآن ، محاولات هؤلاء – دون جدوى – للحصول على دعم القوى السياسية المغربية المنحدرة من البورجوازية الوطنية السابقة. أما فيما يخص النظام الملكي ، فإن دروس تجربتهم المريرة معه خلال قرن ، قد أفادتهم كثيرا بهذا الشأن.

وفي هذا السياق نشرت مجلة "أنفاس" في عددها المزدوج 7/8 الصادر بتاريخ يناير 1972 (أي مباشرة قبل اعتقالات نهاية يناير 1972)، نصا ذا قيمة تاريخية ، لكونه ينبني على حوارات مفصلة مع مصطفى السيد الوالي ، والمعنون ب"فلسطين جديدة على أرض الصحراء" ، من ص 66 إلى 76 (ونذكر هنا بأن المقال تم توقيعه باسم هيئة تحرير المجلة ، أي من طرف مسؤولين قياديين عن المنظمتين الماركسيتين اللينينيتين المغربيتين اللتين ستسميان فيما بعد ب "إلى الأمام" و"23 مارس"). ويخلص هذا النص بالخصوص إلى ما يلي:

"إن من العوامل التاريخية الأساسية ، التي عرقلت نمو حركة التحرير في الصحراء ، ضد الاستعمار الإسباني ، والسيطرة الاقتصادية والعسكرية الامبريالية ، وضد الخونة المحليين ، هو التكتل المستمر خلال كل الفترة التاريخية الماضية ، لتطويق وتفريق المبادرات التحريرية في الصحراء ، وفرض الوصاية عليها من طرف الرجعية المحيطة بأرض الصحراء ، وخاصة منها ، من جانب الرجعية المغربية. وقد وقع دوما هذا التدخل الرسمي تحت غطاء مغربية الأراضي الصحراوية. ومن الواضح أن الإفلاس الملموس للرجعية على صعيد المعركة الوطنية ، وتحدد ارتباطاتها ،وتوثق تبعيتها للامبريالية ، يجعلها في الصف المعادي عمليا لتحرير الجماهير الصحراوية.

إن تعمق التناقض بين الجماهير الصحراوية والسلطات الاستعمارية ، يسير بموازاة انكشاف التعامل الرجعي/الامبريالي على حسابها ، ويجعلها بالتالي تنفر من شعار "الانضمام للوطن الأم" في ظل الظروف السياسية والتاريخية الحالية.

من تم يتخذ الدور السياسي المستقل لحركة التحرير الصحراوية طابعه الحاسم ، في شق الطريق الفعلي الصحيح للكفاح ، طريق العنف الثوري المسلح ، الذي أكدت حوادث يونيو 1970 تنميته وضرورته بالنسبة للجماهير الصحراوية المضطهدة. إن شق هذا الطريق ، تحت شعار محاربة الاستعمار الإسباني والهيمنة الامبريالية في الصحراء ، بالاعتماد أولا على ذات الجماهير الصحراوية ، ليتطلب رفض الوصاية السياسية من الرجعية المحيطة بأراضي الصحراء بكل حزم".

بهذا النص ، يمكننا أن نقيس مستوى وعي هذه النواة من المناضلين الصحراويين الطلبة. لكن هذا الوعي سيكتمل نضجه فيما بين 1972 – 1973 مع اندماج هؤلاء المناضلين بقدماء الأطر المناضلة ، التي خاضت معركة تحرير الشعب الصحراوي ، ومع الالتحام بالجماهير الصحراوية نفسها داخل مخيمات المنفى.

منذ الشهور الأولى لعام 1972 ، وفي الوقت الذي عرف فيه الصراع الطبقي بالمغرب تطورا هاما ، وعرفت فيه الحركة الطلابية والتلاميذية انطلاق نضالات ضخمة ، سيغادر هؤلاء المناضلون مدينة الرباط ، ليعبؤوا ، في حركة نضالية مماثلة ، لكن لها خصوصيتها ، التلاميذ الصحراويين في جنوب المغرب ، كما سيقومون في نفس الوقت بربط الاتصال مع قدماء مناضلي "حركة التحرير" داخل الصحراء الغربية نفسها. لكن القمع البوليسي الذي ووجهت به المظاهرات التي

اندلعت خلال شهري مارس وأبريل من سنة 1972 ضد الاستعمار الإسباني في مدينة طنطان والاعتقالات التي تعرض لها العديد من المناضلين —من بينهم الوالي الذي تم حجزه لمدة محدودة — سيدفع هؤلاء المناضلين إلى تركيز نشاطهم على مخيمات اللاجئين الصحراويين بتندوف والزويرات. وفي هذه المنطقة الأخيرة سيستقبل هؤلاء من طرف قدماء المقاومين الصحراويين ، الذين كانوا ينتمون إلى جيش التحرير ، من بينهم أحمد بن القايد الذي ناضل أيضا في "حركة التحرير".

إن التجربة المتراكمة لخمسة عشر سنة من النضال ، هي التي ستؤدي إلى ميلاد جبهة البوليزاريو ، التي عقدت مؤتمرها التأسيسي في 10 ماي 1973 ، وإلى انطلاق أول عملية مسلحة ببنادق قديمة من طرف البوليزاريو في 20 ماي 1973 ، حيث تم الاستيلاء على أحد مراكز الجيش الاستعماري الإسباني في قلب الساقية الحمراء.

إن تشكيل جبهة البوليزاريو ، واندلاع الكفاح المسلح مباشرة بعد ذلك ، سيعملان على تنامي الحس الوطني لدى الشعب الصحراوي ، وطموحه الواضح للاستقلال الكامل ، وقد تجسد ذلك بالملموس في البيان الصادر عن المؤتمر الثاني لجبهة البوليزاريو المنعقد في 25/31 غشت 1974..كما ستعرف سنة 1974 هاته بداية سقوط آخر الامبراطوريات الاستعمارية بإفريقيا ، وذلك مع قيام الثورة البرتغالية ...